على هامش الحرب

الطابور الخامس فى القرآن

المنافقون

للأستاذ عبد الرزاق ابراهيم حميدة

— ٥ —

مواقفهم من حروب الرسول : فى أحد . فى الأحزاب . فى تبوك . إشاعاتهم السيئة عن جيوش المؤمنين . إهمال النبى لهم عسى الله أن يتوب عليهم . عاقبة المصرين .

وقف المنافقون من حروب النبى موقف المُخَذِّل المثبِّط ، الجبان الرعديد ، الناقض لما عاهد الله عليه ، الطامع فى المغنم ، المقصر عن نصرة الدين . واقد كان شرهم مستطيراً حقاً . لأن المؤمنين كانوا يركنون إليهم ، ويَعُدُّونهم من أنصارهم ، فإذا الشر أبدى ناجذيه للمؤمنين قعد هؤلاء عن نصرتهم ، وشمتوا عند هزيمتهم ، وقبضوا أيديهم عن إعانتهم ، واعتلوا لذلك بعلل سخيفة مزيفة فَضَحَ الله على أنها كاذبة ، وبين أنهم دعاة الهزيمة ، وأنصار العدو ، بل زاد على ذلك فاعتبرهم عدواً وقال للرسول فيهم وفى جُبنِهم « يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . »

وأى طابور خامس أشد خطراً من المنافقين الذين أحسن المسلمون عشرتهم ، وائتمنوهم على أسرارهم وأخلصوهم الود ، واتخذوهم بطانة ، وأمنوا جانبهم ، ولم يحسبوا حساباً لخيانتهم وغدرهم ، ولم يضعوا خطة لتَوَقى شرورهم ، فاستعانوا بذلك على إيذائهم ، وإنزال الضر بهم ، وظنهم وقت الحرج والانتقاض عليهم عند المحن والشدائد ؟

وفى قَصَصهم يوم أحد ، وفى وقعة الأحزاب وتبوك ما يبرهن على أنهم كانوا أضرَّ على المؤمنين من العدو الخارجى ، وأنهم خانوا الله والرسول ، ونقضوا الأيمَانَ ، رغبة فى إبادة المؤمنين ، وطمعاً فى إزاحة الدين الجديد من بلادهم .

لما انهزم المشركون ببدر فكروا فى الثأر من المسلمين ، وفى السنة الثالثة للهجرة خرج أبو سفيان فى ثلاثة آلاف مقاتل يريد غزو المدينة ، فسمع النبى بقدومه ، فاستشار أصحابه ، فأشار عليه عبد الله بن أبىّ — وكان رأساً فى الأنصار إلا أنه كان يضمر نفاقاً — أن يبقى بالمدينة ، وقال له : ما خرجنا على عدو قط إلا أصاب منا وما دخلوا علينا إلا أصبنا منهم . وكان رأى النبى البقاء ، لكن قوماً ممن لم يشهدوا بدراً ودُّوا الخروج لينالوا شرفاً مثل شرف الذين شهدوا بدراً . فنزل النبى عند رأيهم ودخل بيته ولبس لامته . فندم هؤلاء على إلحاحهم ، وقالوا للنبى : إن شئت خرجنا وإن شئت بقينا . فقال : ما كان لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه . وخرج جيش المسلمين ، وعلى مقربة من أحد انخذل ابن أبىّ بثلث الناس ورجع إلى المدينة ، وقال : علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ وهمّ بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس أن يفشلوا كذلك تقليداً للعمل السيء الذى قام به ابن أبى ، ولكن الله عصمهم وقال فيهم : إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليُّهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون . والتقى الجمعان بأحد ، ودارت الدائرة على قريش أولاً . فلما شغل المؤمنون بجمع الغنائم ، وخالف بعض الرماة أمر النبى ، وتركوا مكانهم الذى وقفهم فيه ، انكشف ظهر المسلمين للعدوّ ، وكان على فرسان المشركين خالد بن الوليد ، فأتى بفرسانه ، وأعمل السيف فى رقاب المؤمنين ، فاختلط أمرهم ، وفر كثير منهم ، وثبت النبى وصفوة أصحابه ، ونادى فى المنهزمين : إلىّ عبادَ الله ! فعادوا وكشفوا عنه جيش المشركين ، ثم تحاجز الفريقان ، بعد أن قُتِل من المسلمين سبعون ، منهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب

كان فى الجيش قوم من المنافقين لم ينخذلوا مع ابن أبى ، فلما رأوا ما حل بالمسلمين ظنوا بالله الظنون ، وقالوا : لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتِلْنا هٰهُنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . أما الذين لم يشهدوا الحرب ، فقد شمتوا بالمؤمنين ، وظنوا أن الهزيمة كانت بسبب مخالفة المؤمنين لرأى ابن أبى ، وهم الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ، لو أطاعونا ما قتِلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . ثم بيّن الله أن سبب الهزيمة هو إرادته أن يميزَ الخبيث من الطيب ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا . ونهى الله المؤمنين عن اتخاذهم بطانة ، وحذرهم أمرهم فقال : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خَبالاً ، ودوا ما عَنِتُّم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم

أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون

ولما أخرج الرسول يهود بنى النضير من المدينة لم تهدأ لهؤلاء ثائرة حتى جمعوا الأحزاب من قريش ومن أطاعها من الأحابيش ، ومعهم أسد وغطفان ، وساروا إلى المدينة فى عشرة آلاف مقاتل يريدون استئصال المؤمنين ودينهم . واستطاع اليهود أن يضموا إلى جانب الأحزاب بنى قريظة ويجعلوهم ينقضون عهدهم للنبى ، واتقى النبى الأحزاب بالخندق الذى حفره ليحجز الغزاة الفاتحين . أما بنو قريظة فقد حفظ الله المؤمنين من شرهم على الرغم من شدة خطرهم فى ذلك الوقت ، وأما المنافقون الذين ظنوا أن هزيمة يوم أحد كانت لخروجهم من المدينة إلى عدوهم ، فقد قالوا هم والذين فى قلوبهم مرض يوم الأحزاب : « ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » وحاولوا أن يصدوا المدافعين ويضعفوا إيمانهم بالنصر لأن العدو كثير العدد ، واعتذروا عن الدفاع ، واستأذن بعضهم النبى فى الانسحاب إلى بيوتهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهدُ الله مسئولاً . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً . قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون البأسَ إلا قليلا » . أولئك هم المنافقون الجبناء الذين كانوا يحاولون إضعاف جيش المؤمنين ، وتثبيط الجند عن الدفاع والاعتذار بأعذار واهية كاذبة . وهم الذين يقول الله فيهم بعد : « فإذا جاء الخوف رأيتَهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يُغشى عليه من الموت ، فإذا ذهبَ الخوفُ سَلَقُوكم بألسنةٍ حدادٍ » من أجل طمعهم فى الغنائم بما لا يتفق مع جبنهم وقعودهم وتثبيطهم غيرهم « أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً »

وكان هناك المرجفون فى المدينة يؤلفون أخبار السوء عن سرايا رسول الله ، فيقولون هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت ، فأى خطر أشد من هذا ؟ أليس ذلك قتلاً للروح المعنوية وتنفيراً للناس من الجهاد ، وفضًّا للمستضعفين من حول النبى ؟ من أجل هذا هددهم الله وخوفهم ، وقال لرسوله الكريم : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا »

فهل انتهى المنافقون بعد هذا التخويف ؟ وهل انتهى الذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة ؟ سنرى من موقفهم فى تبوك أنهم لم ينتهوا . وإن كثيراً منهم أخلفوا الله ما وعدوه . وزادهم حلم النبى الكريم ومعاملته لهم على حسب ظاهرهم ، وإمهال الله لهم ، إمعاناً فى النفاق ، وكيداً لنبيهم ودينه وأصحابه ، واستمر ذلك حتى فتحت مكة ، ودانت ثقيف وخضعت الجزيرة العربية ، ووجه الرسول جهاده إلى خارجها

فى السنة الثامنة وجه جيشه إلى الروم فى الشمال ، وأمر على الجيش ثلاثة من كبار الصحابة ، وأحس النبى الكريم بأنهم قد يقتلون جميعاً ، فلما التقت جيوش الروم بالمسلمين عند «مؤتة» قتل قواده الثلاثة كما عينهم ، واختار المسلمون بعدهم خالد بن الوليد فأفلح فى الانسحاب ، ولم يتبعه الروم داخل الجزيرة خشية أن يكون انسحابه مكيدة حربية يجر بها الروم إلى داخل الصحراء ثم يضربهم

وفى السنة التاسعة للهجرة أراد النبى أن يجهز جيشاً للثأر من الروم ، وإتمام ما بدأه فى مؤتة . وكان الوقت الذى اختاره للخروج وقتاً شديد الحر ، والمسلمون فى عسرة من الظهر ، وقد طابت الثمار ، والناس يحبون البقاء فى ثمارهم وظلالهم ، وتجهز الجيش ، وساهم الصحابة بما يستطيعون لتجهيزه وخرج النبى بجيشه وركائبهم قليلة حتى كان يعتقب العشرة منهم على بعير ، وزادهم قليلٌ حتى اقتسم التمرة منهم اثنان . وماؤهم أقل حتى نحروا الإبل وشربوا ما فى كرشها . وكان العدو كثير العدد ، والشُّقة بينهم وبينه بعيدة ، والحاجة شديدة إلى كل مساعدة مهما قَلَّتْ . فماذا فعل المنافقون لنجاحها ؟

الله يشهد أنهم عملوا جهدهم لإحباطها سواء منهم من خرج فى جيش المؤمنين ، ومن رضى بالقعود والتخلف عن رسول الله ؛ أما الذين رضوا بالقعود فقد رغبوا بأنفسهم عن نفس رسول الله

واستبعدوا أن يفلح محمد فى هذه المغامرة ، وتحدثوا بذلك ، وأخبروا غيرهم بالقعود ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، واستأذنوه صلى الله عليه وسلم فى التخلف معتذرين بأعذار كاذبة ، والحق أنهم جبنوا وبخلوا وكان أملهم ضعيفاً فى انتصار المسلمين والفوز بالغنائم ، وقد بين الله ذلك فى قوله : « لو كان عرضاً قريباً وسَفَراً قاصداً لاتَّبَعُوكَ ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم . يُهْلِكون أنفسهم ، والله يشهد إنهم لكاذبون » وكان استئذانهم فى القعود لارتيابهم وحرصهم على حياتهم وعدم اهتمامهم بنصرة دين الله : « ولو أرادوا الخروج لأَعَدُّوا له عُدَّةً ولكن كَرِهَ اللهُ انبِعاثَهُمْ » لعلمه بما فى نفوسهم من غلّ وما يدبرون من فتن ، وما يحدثون من اضطراب وتفريق فى جيش المؤمنين « فَثَبَّطَهُمْ ، وقيل اقعدوا مع القاعدين » ، ثم بيّن الله نوع الضرر الذى يصيب المسلمين من خروجهم معهم فقال : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكم يَبْغونكم الفتنة » ولأسرعوا بالوشاية والإفساد بينكم ، ومع ذلك فقد خرج قوم منهم يتجسسون لمن قعد وهم الذين عناهم الله بقوله : « وفيكم سَمّاعونَ لهم »

سار الركب فى طريقه إلى تبوك (فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق) وفيه بعض المنافقين وصار هؤلاء يسخرون فى الطريق من الفكرة التى خرج النبى من أجل تحقيقها ، وقال بعضهم لبعض : أنظروا إلى هذا الرجل ! يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها . هيهات هيهات ! أليس فى هذا القول ما يزلزل قلوب المستضعفين من الجند ، ويذهب حرارة الإيمان والثقة بالنصر من قلوب المؤمنين ؟ ومتى شاع مثل هذا الضعف ، وعدم الثقة فى جيش فعليه العفاء . ثم أليس ذلك مصداق قوله تعالى : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة » ؟

أطلع الله النبى على ما تهامس به أولئك المنافقون الذين خرجوا معه ، فقال : احبسوا علىّ الركب . وأخبرهم بما قالوا ، فحلفوا إنهم ما كانوا فى شىء من أمره ولا من أمر أصحابه ، وإنهم كانوا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصروا على أنفسهم الطريق ، وذلك قول الله تعالى : « ولئن سألتَهُم لَيَقُولُنَّ إنما كنا نخوضُ ونلعب ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا ، قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نَعْفُ عن طائفة منكم نُعَذِّبْ طائفةً بأنهم كانوا مجرمين »

وقد فرح المخلفون بقعودهم خلاف رسول الله ، ولَمَزُوا الذين تطوعوا من فقراء المؤمنين بما يملكون لِقِلَّةِ ما قدّموا ، فتكفل القرآن بالاستهزاء منهم وألحقهم بالنساء ، لأنهم هم الذين وَضَعُوا أنفسهم هذا الوضع ، و « رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالِفِ ، وطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يَفقهون »

وكان لا بد بعد هذا الإمهال وفتح باب التوبة زمناً طويلاً من أن يكشف الله أمرهم ويهتك سترهم ، وأن يعاملهم المؤمنون بما يستحقون ؛ فنهى الله النبى عن قبولهم فى جيشه مرة ثانية . ونهاه عن الصلاة على من يموت منهم والدعاء له فقال : « فإن رَجَعَكَ الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوًّا ؛ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين . ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تَقُمْ على قبره ؛ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون »

ولم يكن النفاق مقصوراً على المدينة وحدها ، بل كان من الأعراب منافقون هم أشجع وأسلم وجهينة وغفار ، وهم بحكم بيئتهم وغلظة قلوبهم وبعدهم عن مُتنزل الوحى « أشدّ كُفْراً ونفاقاً وأجدرُ ألاّ يعلموا حُدودَ ما أنزلَ الله على رسوله » وكان منهم من يَتَّخذ ما ينفقُ فى سبيل الله مَغْرَماً ، ويتربص بالمؤمنين الدوائر ، عليهم دائرة السوء . لم يخرجوا إلى تبوك وجاءوا إلى المدينة ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، ولكن منهم من اتخذ « ما يُنفقُ قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قُربةٌ لهم سيدخلهم الله فى رحمته . »

وما ظن القارئ الكريم بالنادى السياسى الذى بناه بنو غنم ابن عوف لخدمة الدين ظاهراً ، ومأوى للخارجين على الرسول ، والمدبرين للفتن ، والمعادين للمسلمين باطناً ، ليضروهم ويفرقوا بينهم ، وليأوى إليه من حارب الله ورسوله ؟ بئس هذا البناء وبئس بانوه ، إنهم ساء ما كانوا يعملون .

أما هذا البناء فهو مسجد الضرار ، والذين بنوه هم بنو غنم ابن عوف . يروى أن بنى عامر بن عوف لما بنوا مسجد قباء ، وهو مسجدٌ أسس على التقوى من أول يوم — بعثوا إلى

رسول الله أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غنم ابن عوف وقالوا نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله يصلي فيه ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام — وهو الذي قال لرسول الله عليه السلام يوم أحد : « لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم » فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين — فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء . وقالوا للنبي : بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة ، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه . فقال : « إني على جناح سفر ، وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه » . فلما قدم من غزوة تبوك سألوه الصلاة في المسجد ، أو بعبارة حديثة ، سألوه أن يفتتح هذا النادي السياسي المستور الغرض ليكون ذلك أستر لغرضهم وأدعى إلى تقوية مركزهم ، وأكثر جاذبية للمسلمين ، فنزل قوله تعالى فضيحة لهم ، وبياناً لنياتهم الخفية ، إنهم اتخذوا هذا المسجد « ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً . لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » وهـذا هو مسجد قباء ؛ فأمر النبي أن يهدم المسجد الجديد وأن يتخذ مكانه كُناسة تلقى فيها القمامة . ومات أبو عامر الراهب بالشام ، وفسدت الخطة التي دبرها بنو غنم بن عوف « إن الله لا يصلح عمل المفسدين »

وكانت غزوة تبوك حداً فاصلاً بين سياسة المسالمة وسياسة العداوة الصريحة من المسلمين للمنافقين بعد أن هيأ الله لهم الفرصة زمناً طويلاً ليتوبوا ، فنهم من تاب فعفا الله عنه ، ومنهم من أصر على كفره ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له جهنم وساءت مصيرا وانتهى عملهم بعد ذلك ، واستراح النبي من شرهم وضرهم

ومن كل ما كتبناه في الموضوع يتبين أن الطابور الخامس في القرآن هم اليهود والمنافقون ، وكانت سياستهم ترمي إلى التشكيك في الدين ، والطعن في النبي وآله ومحاولة صرف الناس عنه بتجريحه ، والأمل في القضاء على دعوته سراً وجهراً بمعاهدته حتى يأمن لهم ، ثم نقض هذه العهود وقت الشدة ، فكان جزاؤهم ما حل بهم من قتل وتشريد ، وما أنزل الله فيهم من طعن وإهانة ، وما أعده لهم من عذاب أليم ، ثم نصر الله رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين .

عبد الرزاق إبراهيم حميدة

خواطـــر في الحرب

للأســـتاذ محمد عرفة

لقد لعب قانونا الترف والخشونة أعظم دور في هذه الحرب . فمن عرف فتك الترف بالشعوب ، وتقويم الخشونة للأخلاق ، وساعدته ظروفه على التخلص من الترف ، والأخذ بالخشونة ، كان له النصر على من لم يوفق لذلك

هذه ألمانيا ألقت سلاحها في سنة ١٩١٩ ، فشرطت عليها شروط ، وفرضت عليها مغارم ، ظنت في هذه وتلك أنها مجحفة بها ، فأرادت أن تدفع هذا الإجحاف ، فلم يكن ما يسعفها إلا قانون الخشونة فلجأت إليه وفرضته على الناس فرضاً

كان كل كسبها موجها إلى تعزيز قوتها ، لا إلى رفاهية أبنائها ، حتى شاعت فيهم هذه الكلمة : المدفع قبل الزبدة ، وكان المرء فيهم يعمل ولا يمل العمل . وكان عليه أن يكسب ما يسد منه بعض الغرامة ، وما يعول أسرته ، وما يكون منه شراء السلاح وإنماء قوة ألمانيا

ما كان يستطيع أن يأتي بهذه المعجزات إلا قانون التقشف ، فبه وفرت هذا المال الذي أوجد هـذه الأسلحة التي لا تنفد ، ولو سلط على هذا المال الترف لابتلعه . وبه استطاعت أن تصبر في ميادين الحرب المختلفة حتى كان الجندي يمكث أياما محاربا لا يذوق فيها النوم ولا الراحة

وهذه فرنسا لم توفق إلى ما وفقت إليه ألمانيا في الاستعداد لهذه الحرب والأخذ بالخشونة فسلمت في أول مراحلها

وهذه انجلترا وإن كانت قد تمتعت بثمر انتصارها في الحرب الماضية ، وتباطأت لذلك في الاستعداد عن ألمانيا ، ولكنها قد بدأت ، ودعت أخلاقها الموروثة التي ولدتها فيها الروح الرياضية المبنية على التقشف ، فاستجابت إليها ؛ فلما وقع حمل الحرب على كاهل بريطانيا وحدها لم تنؤ به ، ووجدت فيها ألمانيا خصما يساجلها ثباتاً بثبات ، ومقاومة بمقاومة .

ولم أسرد ما تقدم للمتعة ، ولذة القصص ، فما بي ذلك ، وإنما بي أن أضع يد قومي على موضع العظة ، وأدلهم على موضع العبرة ، وأبين لهم الترف ، وهدمه للأمم ، والخشونة وبناءها للشعوب ، فلعلهم يجديهم الموعظة ، ويكون منهم الاعتبار .

محمد عرفة